سلسلة يشرف عليها
كمال عمران

هذه السلسلة تصدر
بالتعاون مع وزارة الثقافة

الشاذلي القليبي

# من قضايا الدين والعصر

الدار التونسية للنشر

ISBN 9973 - 12 - 140 - 6

9973 - 12 - 229 - 1

جميع الحقوق محفوظة للدار التونسية للنشر

ـ 1992 ـ

بسم الله الرحمن الرحيم

# مقدمة

## مجتمعاتنا تنشد الوئام

أبق ما يتساءل عنه البشر ، منذ ظهور الضمير الإنساني ، مآلهم بعد الموت ، وهل بين هذه الحياة وذلك المآل من صلة تفرض أن يقدموا في الدنيا ما به سعادتهم في الآخرة .

ذلك هو التساؤل الذي نجده دوما في قرارة الإنسان ، مهما تقلبت به الأحوال ، ومهما تفلسفت به مذاهب التفكير .

وأغلب ما كان يطمئن إليه البشر ، جوابا عن هذا التساؤل ، الإيمان بحياة بعد الموت ، تختلف قيمة بحسب ما قدّم من خير أو شر : وذلك هو جوهر الدين .

ولعله من طبيعة الإنسان أن يتساءل عن المستقبل، وأن يُعْنَى في كل حال ، بتجاوز ما هو فيه ، الى فسحة من الغيب ؛ إلا فئات قليلة ممن أنكروا ، واستبدلوا التاريخ بالغيب ، فجعلوا تجاوز الإنسان جريا وراء إنشاء كيان له ، ليس في الوجود قيمة سواه ، حسب اعتقادهم ، ولا طائل من ورائه .

وقد طغى هذا الاعتقاد في أروبا ، في أواخر القرن الماضي وأوائل هذا القرن ، حتى عمّ فئات اجتماعية مختلفة . ثم طما الى بلاد كانت عريقة في التديّن ، مثل البلاد الإسلامية ، فلم تتزعزع عقيدتها ، لكنها ، من خلال ما اقتبسته من أنماط في التفكير والتنظيم ، وجدت نفسها ، أحيانا ، بمنأى عن مشاغل الدين .

وعن ذلك الابتعاد عن الدين ، نشأت احدى معضلات هذا العصر ، في سائر بلاد العالم ، وفي

مجتمعاتنا الاسلامية بالذات : ذلك أن التاريخ لم يستطع أن يملأ ما تركه الدين من فراغ في نفوس البشر، ولم يتمكن من خلق الضوابط الخلقية التي بها نكهة الحياة ، بحلها وحرامها ؛ فإذا الانسان يمعن فيما انفتح له من حرية ، فلا يجد لها طعما ، ولا هو مدرك للحياة معنى ، ثم هو لا يظفر ، من التجاوز عبر التاريخ ، بما يحتاج اليه من فسحة لآماله وأحلامه ؛ وسرعان ما يرتطم بصخور تحجب عنه ما كان يصبو اليه، وراء الكسب والصلف التاريخي ، من إشراق للروح ، به يستقيم الوجود ويكتسب معناه .

الى ذلك ، مضافا اليه عوامل أخرى راجعة الى خصائص العصر ، تعزى ردود الفعل التي تشهدها الشعوب ، اليوم ، رجوعا الى الدين ، بل بحثا عن إيمان يعمر نفوسا خاوية على عروشها ، بلقعا ، تنشد ، معا ، الارتباط بعقال ثابت ، والانطلاق الى أبعاد غير متناهية . وهو بالضبط ما يوفره الدين ، بما يتلألأ فيه من قيم روحية وسلوكية ، بها يعلو الانسان على ما هو منغمس فيه من أوحال المادة .

ولكن الدين ، اليوم ، لا سيما في بلادنا الاسلامية، كثيرا ما يبدو ، لهذه النفوس العطشى ، على غير نسق مع واقع العصر وشؤون المجتمع . ذلك لأن الدين لم يواكب التطور الاجتماعي ، ولأن المجتمع لم يراع للحياة الروحية حقوقها . فاذا التوق ينقلب الى انفجار ، واذا الطلب يتحول الى ثورة الأوضاع ، قصد الظفر بأصالة ، هي ، في أغلب الأحيان ، من صنع الاجتهاد .

ومن الطبيعي أن يتفلسف البعض في تكييف هذا التوق ؛ كما أنه لا مناص أن يختلط هذا الطلب بمآرب عاجلة ، اجتماعية أو سياسية . فهل يجب أن نحنق من عنف هذا التوق ؟ وهل ينبغي أن نتجاهل منطلقات هذا الطلب كالسيل يحمل شتى المجروفات : فيها الزبد الذي يذهب جفاء وفيها الثرى الذي ينفع الناس فيمكث في الأرض ، فيحييها ويبعثها نشأة أخرى ؟

الدين قوام واعتدال ، أو يزيغ عن مقالته التي هي الخير والبرّ والإحسان بالنسبة الى الفرد وبالنسبة الى الجماعة ، سواء . فليس للمجتمعات الاسلامية بدّ من

مراجعة أوضاعها ، الاجتماعية والدينية ، معا ، مراجعة ينبغي أن تكون هادئة منظمة ، لخلق مناخ روحي يتناسق والتطور الفكري والرقي الاجتماعي والازدهار الاقتصادي .

ذلك ما نحن مطالبون به ، حتى يكون الدين بحق، كما أمرنا به ، لله ولرسوله ولخير المسلمين، في حياتهم ومعادهم .

ونحن لذلك مطالبون برتق الفتق بين ما نحن فيه من شواغل ، وما يدعونا اليه الدين من فروض ، حتى تكون الحياة ، لدى الأفراد والمجتمعات وحدة متماسكة الأجزاء ، متآلفة القوى .

نحن إذن ، مدعوون الى بناء فكري جديد ، يمكّن الانسان المسلم مما ينشده من وئام في نفسه وفي الآفاق .

الى ضرورة هذا البناء يشير ما جمع في هذا الكتاب من مقالات — لعلها تكون مساهمة في الحوار القائم في نفس كل مسلم ، فيما بينه وبين ضميره .

# مسؤولية الإبلاغ

من الأمور الّتي أخذتها طائفة من اسلافنا عن الثقافة الفرنسية الإيمان بالعلم على أنه قادر على تفسير كل شيء ، إن عاجلا أو آجلا ؛ وأنه لم يعد بنا من حاجةالى الركون الى الدين لفهم أسرار الكون . وأدى ذلك ببعضهم ، وعددهم والحمد للّه قليل ، الى خلع المعتقدات الدينية ، ظنا منهم أنها استوفت ما كان لها في القرون الغابرة من رسالة متصلة بصدّ الناس عن الشر ، والاستجابة لما جبل عليه البشر من ميل الى طلب فهم المغلّقات « في الآفاق وفي أنفسهم » ؛ وأن العلم ، في هذا العصر ، أصبح قادرا على تفسير كل

معضلات الوجود ؛ وأن الضمير الخلقي أصبح هو أيضا في إمكانه أن يردع الناس عما كانوا يهابونه مخافة عقاب الآخرة.

ولعل الكثيرين من هؤلاء كانت تحدوهم رغبة في التنصل من « ربقة الدين » في تصريف شؤون الدنيا ، اقتداء بالفكر الجديد واتباعا الى « موضة » العصر ؛ ولم تكن نفوسهم تخلو من إيمان صادق ، على ما يشوبه من غموض وتفكك .

ولعل الذي حدا بهم الى هذه المواقف العلنية او الى هذه الاتجاهات الضمنية ، إعجابهم بأساتذة فرنسيين تشبعوا بعلمانية القرن التاسع عشر المتلخصة في الإيمان بالعلم عوض الإيمان بالدين .

وكان من واجب الأساتذة التونسيين في ذلك العصر أن يواجهوا التأثيرات الهدامة بتلقين حقائق الاسلام ، وتحبيب ما يقوم عليه من قيم وهاجة ومبادىء أخلاقية وأسس اجتماعية . ولقد اجتهدوا بالفعل أن يقوموا بواجبهم . وبعضهم ممن وفقوا في

ذلك يذكرهم تلامذتهم بشيء من العرفان والتقدير غير قليل . ولكن أكثرهم ، والحق يقال ، لم يستطيعوا أن يؤدوا رسالتهم أداء كاملا ، لسبب ما كانوا ليملكوا له سلطانا : وهو اختلاف الذهنية بينهم وبين هذه النابتة التي كانت تنهل من فكر ديكارت وشك فلتار ، وروح القانون عند مونتسكيو ، ثم تأثرت بعلمانية كونت ، وانبهرت ببريق الحضارة الأوروبية ، فألقي في روعها ، من حيث لا تشعر ، أن ما أحرزه الأوروبيون من تقدم إنما الفضل فيه ما خيل إليها أنّه تحرّرهم من قيود الدين.

وللمذهب العقلاني في غلوه وإسرافه غيبوبة تشبه شطحات الصوفية . فلذلك كان الآخذون به يؤمنون إيمانا أن العقل في مقدوره أن يحل مغلّقات الكون وأن الانسان ، بفضل العلم ، لم يعد في حاجة الى الدين ليشق طريقه في الوجود ، أو ليطمئن على مصيره بعد الموت . والموت هو نفسه شيء أصبح العلم يحاول أن يفك ألغازه ، طمعا في تأخير ساعته ، والتخفيف من حتمية قضائه .

ولكن الفكر العلمي تطور ، وتجاوز هذه المواقف

العقائديّة . وأصبح ، اليوم ، الى التواضع أقرب ، وعن الصلف أبعد .

ولم يمت الدين في الانسان كما ادّعى نيتشا . ولعل الفطام أجج فيه الظّمأ ، وجعل عودة الدين في هذه الأيام كالمد بعد الجزر ، في عنفه عند الشباب ، وشموله لكل الأقطار .

ومن جيلنا ، ومن الذين جاؤوا بعدنا ، طائفة تأثرت بالفلسفة الماركسية ، فذهبت الى قصر اهتمامها على ما يتصل بحياة الانسان في المجتمع ، واعتبرت أنّ أوكد الواجبات إسعاد الجماعة ، دون انشغال بما سوى ذلك من أمور ، ليس في نظرهم من طائل وراءها.

هؤلاء ركزوا على اهتمامات هي عند البشر ذات شأن ، ولكنها لا تستأثر بمهجتهم ، ولا تستقيم بها وحدها حياتهم . ذلك أن الانسان حيوان يمتاز ، في جملة ما يمتاز به — وقد أقول في مقدمة ما يمتاز به — بأنه مجبول على تجاوز المادة الى ما به في نظره قوامها ، أعني الروح ، والروح مآلها يتجاوز المجتمع والتاريخ ،

وتنفذ من أقطار الدنيا . ولن تستطيع قوة أن تكبح من جماح هذا التوق ، ولا أن تكبت في الانسان هذا النداء.

ومن هذين الجيلين طائفة أخرى ، أكثر عددا ، تلقوا ثقافة تقليدية مزجت في أنفسهم القناعة الدينية وضربا خفيّا من الاستحياء أن يظهروا في أعين أترابهم في مظهر المتخلفين عن عصرهم : فتكلفوا لذلك من «التحرر» ما يزيد أحيانا عن القدر .

هؤلاء حسنت نيتهم بموضة العصر فأرادوا أن يوفقوا بين تعاليم الدين وذهنية الجيل . وهو قصد شريف ، وطلب جليل ، الى مثله ينبغي أن تتجه الجهود. ولكن كان الأجدر أن يقصدوا الى اللب ، ولا يقنعوا بالأمور السطحية التي لا تسمن ولا تغني من جوع .

وتجاه كل هذه الفئات ، من القدامى والمحدثين ، وفي غير حوار معهم ، غالبا ، جماعة صدقوا ما عاهدوا اللّه عليه ، وتعلقوا بتقاليد دينهم في شغف وتقوى تشبه

الصلاح عند بعضهم . إلا أنهم وقفوا دون باب الاجتهاد ، خوفا من ترك السّنن الذي كان عليه السلف الصالح .

وهؤلاء كثيرا ما ظلمهم الذين لا ينزعون منزعهم ، فنسبوهم الى جمود الفكر ، وتحجر السلوك ، والعجز عن ابتكار الحلول الملائمة للعصر . وقد يبدو هذا الحكم على درجة من الصحة لولا مراس طويل ، مكّن من الوقوف على جلية حالهم ، اذ هم أحجموا عن الاجتهاد لا عجزا عنه ، بل ورعا وتواضعا ، في أغلب الأحيان .

ولعل من باب الاحترام لهم أن نذكّرهم بأنهم حُمّلوا أمانة ثقيلة ، عليهم أن يبلّغوها ، بأي من الطرق الممكنة . ولن يؤدوها إلا إذا توخوا نهج الرعيل الأول من كبار المجتهدين ، وذلك بإعمال العقل ، وآستنباط الأحكام بحسب ما تدعو اليه الضرورة . والضرورة اليوم إنما هي في الإبقاء على الدين أن يتلاشى ، وفي تعمير نفوس من الشباب أصابها الخواء الروحي ، وتوشك العقائد الجديدة أن تعصف بها عصفا . تلك